

الأبعاد الأخلاقية في شعر أبي فراس الحمداني

Ethical Aspects in Abi Firas Al-Hamdani's Poetry

* د - محمد اقبال

**د - حافظ احمد علي

Abstract:

There is no doubt that the literature reflects the society and keeps it in discipline and lighter. So, it is secret inspiration in the attitude of the individuals and the groups and their manners and views. Mental production of the man can be highlighted in the literary and philosophical works and different kinds of thinking and knowledge which serves the human life. It is narrated that the research in ethical life and describes the sings of nobility, basics of compulsory things will be considered so solid kinds of research which relates with human thinking. That's why this paper will try to study the ethical aspect in the poetry of Abu Firas Al-Hamdani explaining it and describing its reasons.

KEY WORDS: Ethical Aspects, Civilized Society, Arabic Poetry, Abu Firas Hamdani.

* الأستاذ المساعد قسم اللغة العربية ،الجامعة الوطنية للغات الحديثة ،اسلام آباد

** الأستاذ المساعد قسم اللغة العربية ، الجامعة الاسلامية بماول بور

الأدب انعكاس للواقع ومساعد على ضبطه وتنظيمه، فهو وسيلة تأثير في سلوك وتعامل الأفراد والجماعات وأخلاقهم وقيمهم واتجاهاتهم. ويظهر الإنتاج العقلي للبشر في الآثار الأدبية والفلسفية ومختلف أقسام الفكر والمعرفة التي تخدم الحياة البشرية، قيل: "إن البحث في الحياة الأخلاقية والكشف عما تنطوي عليه من آيات الخير، وأسس الواجب، وضروب الفضيلة من أوثق الأبحاث الجدية اتصالاً بالفكر البشري"⁽¹⁾.

لذلك يتحدث المقال عن الأبعاد الأخلاقية التي توجد في شعر أبي فراس الحمداني، فيرصد فلسفة الأخلاق من خلال سلوكه ومواقفه، موضِّحًا إيَّاهَا وكاشفًا أسبابها، هادفًا من ذلك إلى التأكيد على دور الأخلاق العالية في بناء مجتمع حضاريٍّ، مؤكِّدًا أن الحكمة ليست وليدة عمرٍ طويلٍ وتجارب، بل هي نتاج خلقٍ كريم، صاغته خصائص فطريَّة متأصلة في شخصية صاحبها.

أهمية المقال والهدف منه

يأخذ المقال أهمية خاصة باعتباره دراسة تختص بشعر الشاعر أبي فراس الحمداني ، تناقش الجانب الخلفي عنده، وتربط الماضي بالحاضر، فتقدِّم خير نموذج من الماضي القيِّم بما عبَّر عنه من أخلاق عالية، يمكن أن ترشدنا إلى اختيار الرؤية الصحيحة في حاضرنا ومستقبلنا المرجوِّ، لأن الفاضل يجب الاسترشاد بفكره⁽²⁾.

وتهدف الدراسة إلى التأكيد على دور الأبعاد الأخلاقية في بناء مجتمع حضاري، كما تهدف إلى تقديم نموذج أعلى للجيل المعاصر، لعله يبعث فيه روح الأمل، ويخلق لديه ثقة بالنفس والمستقبل من خلال ثقته بأصالته أدبه وتراثه ومواقف رجاله، إذ إن الماضي المشرف يمدُّ الحاضر بالأمل، ويمنحه رسوخًا وصلابةً تضمن نجاحاته، كما قال الدكتور حسَّام الخطيب في معرض حديثه عن

¹ - العواء، عادل، الأبحاث الأخلاقية، دمشق، 1964م، ص 23.

² - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، الطبعة الخامسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1970م، ص 97.

عملية إحياء التراث: "وهي وسيلة لتحويل التراث من زمن إلى زمن بحيث تتفاعل مع الحاضر لتسهم معه في صنع المستقبل وفقاً لمدى ما تحمله من طاقة وحيوية وجدوى"⁽³⁾. والمقال يحاول هذا من خلال الكشف عن حيوية الأبعاد الأخلاقية وجدواها في صنع المستقبل الأفضل.

التعريف بالشاعر

أبوفراس هو الحارث بن أبي المعالي سعيد بن حمدان، ينتهي نسبه إلى تغلب، ولد سنة 320 للهجرة⁽⁴⁾. وقتله قَرْغُؤَيْهِ سنة 357 للهجرة⁽⁵⁾، وهو ابن أخ سيف الدولة الأمير الحمداني، تولاه بالرعاية بعد مقتل أبيه، وولاه إمارة مَنبِج وحرَّان⁽⁶⁾. فكان الأمير الفارس المدافع عن العرب في وجه الغزوات الرومية.

قال الثعالبي في وصفه: "كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ومجداً وبلاغاً وفروسيةً وشجاعةً، وكان المتنبي يشهد له بالتبريز..... وكان سيف الدولة يعجب بمحاسنه ويميّزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله"⁽⁷⁾.

³ - حسام، الخطيب، مسائل تراثية، التراث الأدبي، العدد الثاني، دمشق، سوريا، 1980م، ص3.

⁴ - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3، ص25، وخير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج2، ص155.

⁵ - ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص60، وابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق مأمون الصاغر وأحمد حمّامي، مراجعة رياض عبد الحميد مراد، الطبعة الأولى، دار الفكر، شام، 1984م، ج6، ص150.

⁶ - ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، دار الينابيع، 1999م، ج4، ص242.

⁷ - شذرات الذهب، ج3، ص24.

وقال صاحب بن عباد: "بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس، وكان شجاعاً كامل الأدب"⁽⁸⁾.

لقد أورد المقال حوالي ثلاثين شعراً تعبر عن قيمه الأخلاقية، وإنما تتلاقى هذه القيم في رسم معالم شخصيته والإفصاح عن مواقفه وسلوكه.

الأبعاد الأخلاقية في شعره

فالأخلاق أداة بناء حضاريّ، تعمل على ترسيخ ما له أحقية الوجود، فتحارب الخطأ والسلبيات، وتدعم الصواب والإيجابيات في المجتمع الإنساني، لترتقي به إلى الأفضل، فللجانب الأخلاقي دورٌ مهمٌ في حياة الإنسان، إذ ترسم أخلاقه معالم شخصيته، وتضبط سلوكه ومواقفه، وهذا ما نراه بوضوح في شعر أبي فراس الذي جاء ليفصح عن أخلاقه، ويعبر عن مواقفه الحياتية.

ويقدّم المقال من خلال كشفه اتجاهات أبي فراس الأخلاقية تغييراً أصيلاً لأقواله ومواقفه التي يمكن أن نناقشها وفق النقاط التالية:

1- العفة ونقاء السريرة

العفة هي: "فضيلة القوّة الشهوانية، تلطف الأهواء، فتترك النفس هادئة، والعقل حرّاً"⁽⁹⁾. وقد رصد المقال أبحاثاً من شعر أبي فراس تعبر عن الفضيلة والعفة في تركيبته النفسية والروحية، إذ كان الرجل الفاضل، ذا النفس النقيّة، والعفة التي ضبطت سلوكه، ولطفت أهواءه، فجعلت عقله حرّاً، وإرادته قويّة، تلجم نزواته، وترتقي بسلوكه إلى طهارة الروح والجسد. تجلّى هذا في أكثر المواقف خصوصيةً، إذ تحدثنا أشعاره عن خلوة له مع حبيبته تحت جناح الليل بقوله:

وكم ليلةٍ حُضْتُ الأسنّة نحوها وما هدأت عين، ولا نام ساهرُ

⁸ - الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1989م، ج2، ص159.

⁹ - عبد اللطيف عمران، شعر أبي فراس، دلالاته وخصائصه الفنية، الطبعة الأولى، دمشق، ص111.

فلمَّا خلونا- يعلم الله- وحده
 لبقت كرمت نجوى، وعقَّت ضمائرُ
 وبثُّ يظنُّ النَّاسُ فيّ ظنّوهم
 وثويي ممَّا يرجم الناس طاهرُ
 ولا ربيّةٌ إلاّ الحديثُ كأنه
 جمان هوى، أو لؤلؤ متناثر⁽¹⁰⁾

فهو لم يضعف أمام رغباته، ولم تقد أهواءه إلى الرذيلة، على الرغم من شفافته ورقّة أحاسيسه ومشاعره، بل اقتصر لقاءه بحبيته على النجوى الكريمة، المكلفة بالعفة والصون. وهذا ينسجم مع طبعه، ومع خلق الفروسية الذي تحلّى به، فاجتماع حبه مع فروسيته خلق جوًّا روحياً سامياً، وغزلاً عفيفاً، بعيداً عن الحسيّة الرخيصة، فكان ظاهر القول والفعل، إذ "الفروسية خلق كريم، تقوم على مبادئ مميّزة، أساسها مبدأ القوّة، ومبدأ الأخلاق، وهي سموّ في النفس، فضيلة في الأخلاق، وقوّة في الجسد"⁽¹¹⁾.

فالشاعر محبٌّ لكنّ الحبّ لديه سامٍ، لا ترفُّ عليه الأهواء الرخيصة، بل مبدؤه الخير وغايته الخير. وكما قال عبد اللطيف: "والحبُّ في شعره ممارسة إيجابية، غرضها بناء صرح اجتماعي"⁽¹²⁾. وكما قال أيضاً: "وليس العفة في حبه ظاهرة في طرفٍ واحدٍ هو شخصيته، بل هي صفة من صفات المتغزّل بما أيضاً ويقترّب من العذريين حين يكون مجرّد وجود الحبيبة أو ذكرها في مكان ما منبع خصبٍ وجمالٍ، ومحزّضاً على الحبِّ والخير والعتاء"⁽¹³⁾. فعفته ضمانته له ولمن يحبُّ، يقول:

ويا عفتي ما لي وما لك كلّما
 هممتُ بأمرٍ، همّ لي منك زاجرٌ!
 كأنّ الحجا والصّون والعقل والتّقى
 لديّ لربّاتِ الخدورِ ضرائرُ⁽¹⁴⁾

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 141.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 111.

¹² - المصدر نفسه، ص 141.

¹³ - المصدر نفسه، ص 141.

¹⁴ - ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكرم للطباعة والنشر، دمشق، ص 4.

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يُكَلِّمْ⁽¹⁷⁾

فهو محصن بجواجز أخلاقيّاته من أن يفعل ما تأباه نفسه العفيفة، والعفة لديه لا تقتصر على حبّه وعلاقته بالمرأة، فعفيف النفس عفيفها أمام كلّ مغريات الحياة، فهو عفيف النفس عن المال، يهينه، ولا يسعى إليه إلا ليصون شرفه وعزّة نفسه كما في قوله:

أحمي حريمي أن تبا ح، ولست أحمي ماليه⁽¹⁵⁾

فهّمه منصبّ على حماية شرفه وعرضه، وصورهما من أيّة استباحة، أما ماله فليس من أوليّات همّه، كما قال:

وما حاجتي في المال بغيّ وفوره إذا لم أفرّ عرضي، ولا وقرّ الوفر⁽¹⁶⁾

فالمال لديه وسيلة لحماية شرفه، وليس غاية للثروة، يلتقي في موقفه هذا مع الشاعر الجاهلي عنتره بن شداد إذ يقول:

ففضية العرض لديهما أولويّة لا يساوم عليها، تبذل الأموال في سبيل صورها، فأبو فراس يحتقر المال، ويرفض الثروة، إن لم تكن لحماية حريمه وعرضه، وعنتره حتى في حالة شربه لا تغيب عن ذهنه هذه المسألة وضرورة حمايتها.

2- مجاهدة النفس والترفع عن الدنيا

مجاهدة النفس من أقوى أنواع الرّدع النفسي وأكثرها صرامةً، ولا ينجح في ذلك إلا ذوو النفوس الكبيرة، كأبي فراس الذي كان صارماً مع نفسه، يصونها، ويبعدها عن كلّ ما يعيبها، فيترفع عن الدنيا، وينأى بها عن كلّ خلقٍ ذميمٍ، حتى تنسجم مع حياته الأخلاقية ومنطلقاته الفكرية، فسلكه يرصد هذه المنطلقات، وممارساته تعبّر عن ضميره وأخلاقه فما يقوله ويفعله يعبّر عن مكوّنات نفسه، ويجسّد إشراقات روحه ووجدانه، فهو القائل:

¹⁵ - ديوانه، ص 145.

¹⁶ - ديوانه، ص 92.

¹⁷ - الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار القاموس الحديث، ص 204.

وعرضٌ لا يرفُّ عليه عارٌ وعرضٌ لا يرفُّ عليه عارٌ⁽¹⁸⁾
 يفرُّ من السوء، وكأنه نجسٌ، ولا يقبل الظُّلم، لا لنفسه ولا لغيره، فهو لا يرضى أن يلحق الضَّيم بمن
 هو أضعف منه حتى لو اعتدى عليه، كما في قوله:

لست بالمستضيم من هو دوي لا اعتداءً، ولستُ بالمستضام⁽¹⁹⁾
 كما إنه الفارس النبيل الذي يحصن نفسه من المذلة، ولا يتناول عن إباطه حتى في حماية نفسه من
 الموت، فهو لا يدفع عنها الموت بفعلٍ مشين، كما في قوله:

ولا خيرَ في دَفْعِ الرّدى بمذلةً كما ردّها يومًا بسوءته عمرُ⁽²⁰⁾
 وقوله في إحدى المعارك مع العدو:

وقال أصيحابي: الفرائُ أو الرّدى؟ فقلتُ: هما أمران أحدهما مُرٌّ
 ولكنني أمضي لما لا يُعيبني وحسبُك من أمرين خيرهما الأسرُ⁽²¹⁾

فهو يأبى أن يحمي نفسه بالفرار فيلحقه العار، لكنه يختار الكرامة حتى ولو كان معها خطر الموت
 أو الأسر، وهذا من شيم الفرسان، فهو الفارس الأمير الذي تحلّى بقوة نفسية هزمت الصَّعاب
 وطردت مكامن الضعف من نفسه، فاختر ما حفظ لها إباءها وعزتها، وفي هذا مجاهدة للنفس،
 وضبط لنوازعها.

ومجاهدة النفس تعبر عن موقف وجودي، تقتضيه طبيعة فهم الإنسان لحيلته، وتتطلب منه التحرر
 من النزوات في سبيل غاية أسمى، قيل: "أما حدس الماهية أو الرؤية الواضحة فتقتضي موقفًا وجوديًا
 منّا، تقتضي أن تتحرر من نزواتنا الصغيرة، واهتماماتنا التافهة كي نصبح أكثر صفاءً، إنها تقتضي

¹⁸ - ديوانه، ص 76.

¹⁹ - ديوانه، ص 127.

²⁰ - ديوانه، ص 92.

²¹ - ديوانه، ص 92.

لوناً من المكابدة ومجاهدة النفس، وهي تقتضي أيضاً أن نكون ذوي قضية"⁽²²⁾. وهذا ليس بعيداً عما تحلّى به أبو فراس وعن أهدافه الإنسانية التي كانت قضية وجوده.

3- الوفاء ورفض الغدر

جاء معنى الوفاء في لسان العرب⁽²³⁾: "الوفاء في اللغة الخلق الشريف العالي الرفيع". وفي المستطرف⁽²⁴⁾: "الوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون". والآن نأتي إلى شاعرنا ونسأل هل هو كان وفيّاً؟ هذا ما تؤكده مواقفه، توضّحه أشعاره التي تظهر خلق الوفاء متأصلاً في شخصيته يجسّده بالقول والفعل، منطلقاً من قناعته بأن هذا الخلق من أهم خصائص الرجولة، لذلك كان يحرص عليه، وبفي حتى لأصدقائه الذين يتهاونون في ودّهم ووفائهم كما قوله:

وفي كلّ دارٍ لي صديقٌ أوّده
إذا ما تفرّقنا حفِظْتُ وضيّعاً⁽²⁵⁾

فهو يحفظ صديقه في الوقت الذي يضيّع هذا الصديق ودّه، وفي هذا دليل على كبر نفس رحابة صدر وكريم خلق. وكذلك قوله:

فقل لبني ورفاءٍ إن شطّ منزلٌ
فلا العهد منسيٌّ، ولا الودُّ دائرٌ⁽²⁶⁾

²² - أحمد حيدر، نحو حضارة جديدة، الطبعة الأولى، مطبعة الإنشاء، 1969م، ص176.

²³ - ابن منظور، لسان العرب، (وفي)، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1993م، ج15، ص358.

²⁴ - الأبشيهي، شهاب الدين بن مُجد، المستطرف في كلّ فنٍّ مستطرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، ص206.

²⁵ - ديوانه، ص43.

²⁶ - المصدر السابق، ص7.

فهو مخلص لأصدقائه، وفيّ لهم حتى لو تباعدت الأماكن، أو ضيّعوا وُدّه، فلا شيء يشنيه عن وفائه لهم، لأن هذا الخلق من طبعه وتكوينه، ينسجم مع ضميره ووجدانه، كما تجلّى وفائه في علاقته بمرّيّه سيف الدولة، إذ بقي وفياً له، ومقرّاً بفضله كما قوله:

هل للفصاحة والسّما
إذ كنت سيّدي الذي
حّة والغلا عيّ محيد؟
رئيتني وأبي سعيد

في كلّ يوم أستفيـ
دُ من الغلاء في الندى خُلق جديد⁽²⁷⁾

فهو يقرُّ بفضل سيف الدولة عليه وعلى أبيه، ويفرد على كلّ مكارم الـ×لاق التي يتحلّى بها إلى تربيته إيّاه، كما يربط بين ما يستفيده من العلاء والمجد والكرم وبين رؤيته سيف الدولة. وفي هذا عرفان ووفاء يجعل منه ابناً بارّاً، وفارساً نبيلاً. ولأنه وفيّ يرفض مواقف الغدر حتى مع أعدائه، سواء كانوا سُكّاناً أم جيوشاً، فهو لا يفاجئهم بغارته، ولا يغدر بهم، بل يرسل إليهم ما ينذرهم كما في قوله:

ولا أصبح الحيّ الغيور لغارةٍ ، أو الجيش ما لم تأته قبلي النُدُر⁽²⁸⁾

وهو في هذا يعبر عن ثقة عالية بالنفس، وعن خلقٍ كريمٍ يبعده عن الغدر، لأنه سمة ذميمة يرفضها، ويتجنّبها مع العدو والصديق، فهي لا تنسجم مع سمّ نفسه، لذلك هو لا يُفاجئ عدوّه ولا يقاتله إلا بعد إنذاره، وبهذا يضرب المثل الأعلى في الترفّع والكبر.

4- الكرامة والشرف

ومن تحلّى بتلك الأخلاق السّمحة لا يمكن أن يكون ذليلاً، بل هذه الأخلاق تؤكّد إحساسه بالكرامة، ورفضه للذُّلّ، فالشرف والعزة لهما في تكوينه الخُلقي والسلوكي مكانةً أصيلةً، يسعى إلى تعزيزها ولو كلفه هذا السّعي الجهد والمكابدة قال:

²⁷ - المصدر السابق، ص58.

²⁸ - المصدر السابق، ص92.

إذا ما العزُّ أصبح في مكانٍ
سموتُ له وإن بُعد المزارُ
مقامي حيث لا أهوى قليلُ
ونومي عند مَنْ ألقى عزارُ
أبت لي همَّتي وعزارُ سيفي
وعزمي والمطيَّة والقفارُ
ونفس لا تجاورها الدنايا
وعرضٌ لا يرفُّ عليه عارُ⁽²⁹⁾

فننظر إلى الكلمات التي استخدمها للتعبير عن كرامته وعزّة نفسه، إذ عندما ذكر العزّ قال: سموت له، لأن مكان العزّ سامٍ ورفيع دائماً بالنسبة إليه، وعندما عبّر عن إقامته أو نومه عند من لا تميل إليه نفسه استخدم كلمة (قليل، وعرار) فهو يكابد نفسه ويتحمّل بعض المواقف، لكنّه لا يطيق الاستمرار في ذلك، فهو صاحب الهمة والعزيمة، والنفس الأبيّة التي ترفض ما يخالف طبيعتها. ثم انظر إلى استعماله عبارة (لا يرفُّ عليه عار) في حديثه عن شرفه وعرضه، إذ شرفه أصيل، وعرضه مُصان، لا يقاربه عارٌ.

وعزّة نفسه جعلته يرفض الثروة والمكاسب إن لم تكن محصّلة بالعزّ والكرامة، كما كان له موقف خاصٌّ وصارم من السادة الذين يضعفون أمام رغباتهم كما في قوله:

ولا أنا راضٍ إن كثرن مكاسبي
إذا لم تكنْ بالعزّ تلك المكاسبُ
ولا السيّد القمّمقامٌ عندي بسيدٍ
إذا استنزلتْ عن علاه الرغائبُ⁽³⁰⁾

فلا السيّد سيّدٌ في نظره إذا قادته شهواته ورغباته، لأن المنساق وراء رغباته بسيعٍ إلى سيادته وعلاه، وحتى يبقى سيّدًا عليه أن يكون كريم النفس، شريف الغايات.

وإحساساته بالكرامة يحصّنه من أن يضعف في أدقّ لحظاته خصوصية رغم رهافة مشاعره وصدق لواعجه فهو القائل:

نعم أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ
ولكنّ مثلي لا يُداع له سرُّ

²⁹ - المصدر السابق، ص 24.

³⁰ - المصدر السابق، ص 95.

إذا اللَّيْلُ أضواني بسطتْ يدَ الهوى وأذلكتْ دمعاً من خلائقه الكبير⁽³¹⁾

هذه النفس الأبيّة التي تجلّى بها حمّلتها مسؤولية صوتها عن الظهور بمظهر ضعف، وجعلته يقدر كبرها وعزّها فنأي بها عن كلّ ما يلحق بها الهوان، فهو وإن كان محبباً، وعنده لوعة وتأجج مشاعر لا يفضح نفسه، بل يكتُم أسرارها، ويصونها، لكنه يعيش لحظات صدقه مع الذات عندما يكون منفرداً، في حالة خلوة مع نفسه، بعيداً عن العيون، يرضى لمشاعره العنان لتدلّ كبر دموعه، وهو القائل في أسره مخاطباً حمامة كانت تهدل قريباً منه، فسّر هديلها بالنواح تبعاً لحاله:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تعلمين بحالي

لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلةً ولكنّ دمعي في الحوادث غال⁽³²⁾

فهو في سجنه، ورغم عذاباته يتجلّد، فلا يريق كبرياءه، ولا يهين دموعه، لأن دموعه غالية فهي رمز عزته وإبائه، لذلك لا يهدرها، بل يجبسها، ويتلع ضعفه ليبقى عزيزاً شامخاً.

5- احترام المبادئ والمواقف

الحياة عند أبي نواس مبدأ وموقف، يجب أن يحترم، لذلك فهو يرسم لنفسه منطلقاً أخلاقياً واضحاً، يحترم مبادئه، ويفي لقناعاته، لأنه اختارها بصدق منسجم مع تكوينه الرُّوحِيّ والفكريّ. ومن هذه المبادئ سعيه لفعل الجميل، وتعزيزه لقيمه، كما في قوله:

سأتي جميلاً ما حييتُ فإنني إذا لم أفدُ شكراً أفدتُ به أجراً⁽³³⁾

ففعل الجميل لديه مبدأ لا يجيد عنه، وهو عندما اختاره اختاره عن وعي وقناعة، لا عنه ينسجم مع نظرته السّامية للحياة، ومع طبيعته الرُّوحية والفكرية، فهو على ثقة بأنّ نتائجه إيجابية، أقلّها الشكر ممّن يقدرها في الحياة الدنيا، وإلا فالأجر من الله.

³¹ - المصدر السابق، ص 90.

³² - المصدر السابق، ص 45.

³³ - المصدر السابق، ص 30.

ومنها قيم شخصية، يُدافع عنها، ويتسبب بها، مثل الصبر، وقول كلمة الحق والوقار والهيبية، فهو الصبور المتجمل حتى لو استترفه صبره كل طاقته، وهو قؤول للحق حتى لو عد منه هذا لضربات السيف، كما إنه الوقور المحافظ على هيئته ووقاره في خضم أهوال الزمن التي تحاول النيل منه معززة بحظرات الموت المخيم فوقه، كل هذا لا يخيفه فيجعله يُغيّر قناعاته أو أحكامه على الأشياء إنما يبقى الإنسان المبدئي، يحكم على الأمور بحقائقها، فلا يجامل أحدًا في قول كلمة الحق، ويُسمي الأشياء بأسمائها، إذ الصدق صدق والكذب كذب، لا يتهاون في ذلك، تجلّى في قوله:

صبورٌ ولو لم تبقَ مَيِّ بَقِيَّةٌ
قؤولٌ ولو أنّ السُّيوفَ جوابٌ
وقورٌ وأهوالُ الزَّمانِ تنوشي
وللموت حولي جيئةٌ وذهابٌ
وألحظُ أحوالَ الزَّمانِ بمقلَّةٍ
بها الصدق صدقٌ والكذابُ كِذابٌ⁽³⁴⁾

ومنها الصدق والانسجام مع النفس التي تعرف الازدواجية أو النفاق فداخلها صافي السريرة وخارجها صادق الفعل، لا تناقض بين باطنها وظاهرها، لأن صاحبها يحترم مبادئه فيجسدها واقعًا واعتقادًا كما في قوله:

أنا الفتى إن صفا أو شقّه غزلٌ
فللعفاف وللتقوى مآزره
وأني من صفت منه سرائره
وصحّ باطنه منه وظاهره⁽³⁵⁾

ومن المبادئ التي لا يجيد عنها كونه وقومه في موقع الصدارة، فلا يقبلون الموقف الوسط، فإمّا أن يكون روادًا وإلا فسيموتون دفاعًا عن المكانة التي خلقوا لها، والتي تليق بهم، كما في قوله:

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ بيننا
لنا الصّدْرُ دون العالمينَ أو القبرِ⁽³⁶⁾

هاذا هو أبو فراس في بُعد الخلق.

³⁴ - المصدر السابق، ص 38-39.

³⁵ - المصدر السابق، ص 51-52.

³⁶ - المصدر السابق، ص 93.

أسباب اختيار البعد الأخلاقي

آثار الإنسان لا تكشف طبيعته، فتتقدم دلالات ترسم شخصيته، وتحدد ماهيته، فالعلاقة تواصلية بين الإنسان وأثره قيل: "الإنسان مصدر الأثر، لكنَّ ماهية الإنسان لا يمكن إدراكها إلا في الأثر" (37).

وهذا ما يؤيد هذا المقال، إذ من خلال شعر أبي فراس استطعنا الوقوف على ملامح شخصيته بعده الأخلاقي وبقيمه التي اختارها بإرادته وقناعاته، فالمعروف أن الإنسان يختار سلوكه، ويُحدد لنفسه منهجًا أخلاقيًا، يعبر عنه قولًا وعملاً، قيل: "صحيح أن العقيدة مجال الإيمان، وأن العلم مجال الاحتمال، أمَّا النظر القيمي فمجاله القرار والإرادة والاختيار" (38).

فلماذا اختار الشاعر هذا البعد الأخلاقي؟ وما الذي دعاه إلى التحلي بتلك القيم التي وقفنا عندها؟ خاصة أنه الأمير ابن الأمير، تربى في ترف البلاط، وكان ذا سلطان وجاه وعزة ملك، وأيُّ مكوّن من هذه المكونات كفيّل فإفساد الإنسان وانحرافه إذا لك تكن لديه حصانة، تعصمه عن الزلل، فما العوامل التي حصّنت الشاعر، وجعلته على تلك الصورة المشرقة أخلاقياً؟

1- ربّما يعود الأمر إلى استعداده الفطري، وخصائص جوهره الذاتية، قيل: "إنَّ جوهر الإنسان يتمثّل في عُقْ الفطرة وثرائها، فيه إمكانيات الإنسان الكامنة وطاقاته المتأصّلة، تلك التي تجسّد الطبيعة الإنسانية، وتعطي الإنسان معنيّ لوجوده وهدفًا لحياته فيه تحقيق لإنسانيته، وإعلاء للنفس فوق مادّيّاتها" (39). وقد كانت حكمة أبي فراس منبع إرادته القويّة التي ضبطت سلوكه، ووجّهت مواقفه، لتكون مشروعًا إنسانيًا يسعى إلى خدمة الإنسان.

³⁷ - جان بيلمان نوبل، التحليل النفسي والأدب، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، 1997م القاهرة، ص91.

³⁸ - العواء، عادل، التسامح من العنف إلى الحوار، الطبعة الأولى، دار الفاضل، 2002م، دمشق، ص26.

³⁹ - حمدي الفرماوي، كائز البناء النفسي، الطبعة الأولى، القاهرة، ص342.

- 2- وربما يعود أيضًا إلى أصالة نسبه، فهو من الحمدانيين الذين عرفوا بكرم الأصل ومكارم الأخلاق، وطبعوا على الفروسية والسّماحة، قيل: "كانت الشجاعة والفروسية وروح المغامرة بالإضافة إلى الكرم والفصاحة والشعر والسّماحة هي الصّفات التي اتّصف بها أفراد الأسرة الحمدانية"⁽⁴⁰⁾.
- 3- كما يمكن أن يعزي الأمر إلى نشأته في بلاط سيف الدولة الذي أولاه حسن التنشئة والرّعاية، وهياً له العيش في بيئته تربوية خاصّة، فالإنسان ابن بيئته الاجتماعية والثقافية والروحية وغيرها.
- 4- كذلك من الممكن أن يعزي الأمر إلى تديّنه واعتقاده، إذ تديّنُ أبي فراس مسألة أساسية في تكوينه الرّوحي والفكريّ، وهو لا ينفصل عن ثقافته وإبداعه وممارسته.
- فمواقف أبي فراس وأعماله شاهد حيٌّ على تربيته وإيمانه، خاصّة أنّ التديّن الحقيقيّ هو ما وقر في القلب، وجسّده صاحبه في العمل والسُّلوك، وهذا ما يؤيّد قول الحسن البصريّ: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقه العمل"⁽⁴¹⁾.

⁴⁰ - حسن الأمين، دارة المعارف الإسلامية الشيعية، الطبعة الثانية، دار التعارف للمطبوعات، 1981م، ج11، ص135.

⁴¹ - الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص75.

نتائج المقال

- 1- تحلّى أبو فراس بقيم أخلاقية، كانت نتاج بيئة حاضنة راقية جعلت منه شخصية ساعية حكيمة خلّدت على مرّ الزّمان.
- 2- ليست الحكمة وليدة عمرٍ طويلٍ وتجارب، بل هي نتاج خلقٍ كريم، صاغته خصائص فطرية متأصلة في شخصية صاحبها.
- 3- تتضافر عوامل التنشئة والثقافة والاستعداد الفطريّ على خلق القيم الرفيعة للإنسان، لذلك على المجتمع الإنسانيّ الحقُّ أن يراعي هذه الأمور في التأسيس لمستقبل الأجيال.
- 4- يمكن اعتقاد بعده الأخلاقي قانوناً مؤسساً لمجتمعٍ إنسانيّ جديد، قائم على القيم التي تعززها مناهج تعليمية، وأبحاث علمية، وسلطة راعية ومشرفة على حضانة هذه القيم.

المصادر والمراجع

1. العواء، عادل، الأبحاث الأخلاقية، دمشق، 1964م، ص23.
2. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، الطبعة الخامسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1970م، ص97.
3. حسام، الخطيب، مسائل تراثية، التراث الأدبي، العدد الثاني، دمشق، سوريا، 1980م، ص3.
4. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3، ص25، وخير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج2، ص155.
5. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن مُجَّد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص60، وابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق مأمون الصاغر وأحمد حمّامي، مراجعة رياض عبد الحميد مراد، الطبعة الأولى، دار الفكر، شام، 1984م، ج6، ص150.
6. ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، دار البنابيع، 1999م، ج4، ص242.
7. الذهبي، مُجَّد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1989م، ج2، ص159.
8. عبد اللطيف عمران، شعر أبي فراس، دلالاته وخصائصه الفنية، الطبعة الأولى، دمشق، ص111.
9. ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكرم للطباعة والنشر، دمشق، ص4.
10. الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار القاموس الحديث، ص204.
11. أحمد حيدر، نحو حضارة جديدة، الطبعة الأولى، مطبعة الإنشاء، 1969م، ص176.
12. ابن منظور، لسان العرب، (وفي)، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1993م، ج15، ص358.
13. الأبيشي، شهاب الدين بن مُجَّد، المستطرف في كلِّ فنِّ مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، ص206.
14. جان بيلمان نويل، التحليل النفسي والأدب، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، 1997م القاهرة، ص91.
15. العواء، عادل، التسامح من العنف إلى الحوار، الطبعة الأولى، دار الفاضل، 2002م، دمشق، ص26.
16. حمدي الفرماوي، كائز البناء النفسي، الطبعة الأولى، القاهرة، ص342.
17. حسن الأمين، دارة المعارف الإسلامية الشيعية، الطبعة الثانية، دار التعارف للمطبوعات، 1981م، ج11، ص135.
18. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص75.